الصناعة والحرف في إقليم الزاب ببلاد المغرب الإسلامي ما بين القرنين (02-05 هـ/08-11م)

In the Zab province in Islamic Maghreb during Industry and Crafts (02-05 H / 08-11AC)

L'industrie et l'artisanat dans le territoire du Zab au Maghreb islamique entre les deux (02-05 H / 08-11AC)

د. أسامة الطيب جعيل

قسم التاريخ، جامعة الجزائر 02

تاريخ الإرسال: 22-07-2019 - تاريخ القبول: 11-06-2020 - تاريخ النشر: 31-07-2022

ملخص

تعتبر الصناعة والحرف من الأسس الهامة والضرورية في بناء اقتصاد المجتمع، ويرتبط تقدمها وتطورها بعدة عوامل أهمها الاستقرار السياسي ووفرة المادة الأولية واليد العاملة. وقد شهدت بلاد المغرب وإقليم الزاب طيلة القرون الهجرية الأربعة الأولى فترة طويلة من الاضطرابات نتيجة الثورات التي تسببت بتخريب العمران وتهجير السكان وتهديم الطرق التجارية. تخللت فترات الاضطراب هذه فترات هدوء ساهمت في نشوء صناعات وحرف ومهن متنوعة سمحت بتطور التبادل التجاري وتسويق السلع المنتجة من إقليم الزاب إلى المدن المجاورة أو العكس.

الكلمات الدالة: المغرب الإسلامي؛ إقليم الزاب؛ الصناعة؛ الحرف.

Abstract

Industry and Crafts are considered among the important reasons to build the economy of the company. Its development has a relationship to several factors like political stability, the raw materials and operates it, and during the first four centuries Héjire, the Maghreb and the province of Zab lived much disturbances results of the wars which caused with the destruction of the buildings and the emigration of people and the threat of the economic ways, but the area also lived times of peace which helped to find various trades and craft industries thanks to the development of exchange and the marketing of the local goods of the province of Zab towards the peripheral cities and screw poured.

Keywords: Islamic Maghreb; the Zab province; Industry; Crafts.

Résumé
L'industrie et l'artisanat sont deux importants facteurs de la construction de l'économie de développement de la société. Mais le développement de ces deux secteurs est tributaire de l'existence de plusieurs facteurs comme la stabilité politique, l'abondance des matières premières et la disponibilité d'une manœuvre qualifiée. Au cours des quatre premiers siècles Héjire, le Maghreb et la province de Zab ont vécu beaucoup de perturbations provoquées de guerres qui ont causé la destruction des habitats, la migration des populations et la paralysie des circuits économiques. Entre les différentes périodes de troubles et d'instabilité, la région de Zab a vécu des moments de paix qui ont permis l'entretien et le développement de divers métiers et d'activités artisanales redynamisant ainsi les échanges et la commercialisation des marchandises entre la province de Zab et les villes avoisinantes.
Mots-clés: le Maghreb islamique; la province de Zab; L'industrie; l'artisanat.

مقدمة

ارتبطت الصناعة والحرف ارتباطا لصيقا بالمادة الخام اللازمة لها، واليد العاملة التي تقوم عليها، لأن من دونها تنعدم الصناعة أو الحرفة، وقد أعلى الإسلام من شأن الحرف والصناعات والقائمين عليها بشكل عام، بعد أن كانت تلاقي نوعا من الاحتقار والازدراء والمهانة في ثقافات العالم القديم حتى عند العرب قبل الإسلام.

وقد تأرجحت قيمة الصناع في بلاد المغرب الإسلامي بين التحقير تارة وبين التقدير تارة أخرى. فقد أعتبر الصناع والحرفيون ضمن الطبقة العامة للمجتمع خلال القرن الثالث الهجري، لكن مع مرور الوقت ونتيجة لتطور الصناعة أصبحت بعض الصنائع نشاطا يمارسه أفاضل الناس خلال فترة المرابطين والموحدين بعد الاحتكاك والتواصل مع الدول المجاورة. وإقليم الزاب هو أحد أهم أقاليم بلاد المغرب الإسلامي، وهي المنطقة التي عرفت قبل الفتح الإسلامي بإسم إقليم نوميديا القديم، التي حضت على مساحة شاسعة من غرب مدينة المسيلة إلى غاية منطقة بسكرة وبادس ومنها إلى المنطقة

الشرقية كقسنطينة وميلة، وأختلف المؤرخون حول أصل تسميته التي أرجعها البعض إلى مدينة زابي[1] البيزنطية قرب المسيلة.

ونظير الموقع الاستراتيجي الوسط على خارطة بلاد المغرب، شهدت ساحة الإقليم قيام العديد من الدول والإمارات طيلة العصر الوسيط، وتعايشت على أرضه مختلف الأجناس البشرية منها العنصر المحلي والعنصر الوافد من مختلف أقطار الأرض، فعرف الإقليم رفاهية في فتراته الزاهية، وخرابا في فترات الصراع والحروب. ونتج عن الامتزاج الثقافي بين مختلف العناصر المقيمة بمدنه ظهور حركة صناعية وحرفية مردُّها إلى توفر المواد النباتية والحيوانية ووفرة اليد العاملة بالإقليم، فاكتفى السكان بما يحتاجونه وتم تصدير فائض الإنتاج إلى باقي أقطار بلاد المغرب الإسلامي وبلاد السودان. وارتبطت حالة الصناعة والحرف لدى السكان بالواقع السياسي للإقليم، حيث بعد الفتح الإسلامي جاءت فترة اضطرابات في عصر الولاة، تبعتها فترة زاهية ورخاء في عهد الدولة الأغلبية، ثم فترة ثورات وتخريب بعد ظهور الفاطميين على ساحة بلاد المغرب الإسلامي، ثم أصبح الإقليم يتبع الدولة الحمادية إلى غاية دخول القبائل الهلالية وتشكل الإمارات المحلية بالإقليم مثل إمارة بني مزني.

وبناء على ما سبق جاء اختيارنا لهذا الموضوع الموسوم بـ: الصناعة والحرف في إقليم الزاب ببلاد المغرب الإسلامي ما بين القرنين (02-05 هـ/08-11م)، فكان السبب الرئيسي لاختياره هو التعريف بالحياة الاقتصادية خاصة الصناعة والحرف التي عرفها إقليم الزاب ما بين القرنين الثاني والخامس الهجريين، حيث تكمن أهمية الموضوع في التأريخ لهذا الإقليم وإماطة اللثام عن جوانب متعددة عرفها مجتمع إقليم الزاب في فترة تعددت فيها السيطرة السياسية على الإقليم بين مختلف الدويلات الإسلامية والقبائل المحلية والوافدة على الإقليم.

---

[1] - **مدينة زابي**، مدينة رومانية قديمة، تقع قرب مدينة المسيلة، أقام حولها الرومان الكثير من الأبراج ومراكز الحراسة في إطار خط الليمس الدفاعي وتدعى اليوم بشيلقا، تم تهديمها على أيدي الوندال ثم أعاد البيزنطيون بنائها وسميت بزابي جستنيان (شنيتي ، 1999، ص 179).

ومما سبق نطرح الإشكال الآتي: كيف ظهرت الصناعة والحرف لدى مجتمع إقليم الزاب ببلاد المغرب الإسلامي ما بين القرنين (02-05 هـ/08-11م)؟ وللإجابة عن هذه لإشكالية، نطرح التساؤلات التالية:

- ماذا نعني بمصطلح الزاب؟
- ماهي حدود وجغرافية هذا الإقليم ببلاد المغرب الإسلامي؟
- ما الصناعات والحرف التي عرفها مجتمع إقليم الزاب؟

1. حول مصطلح الزاب

يُعرف ابن منظور كلمة " زاب " بقوله : " زاب : زأب القربة يزأبها زأبا، وازدأبها : حملها ثم أقبل بها سريعا، والازدئاب هو الاحتمال وكل ما حملته بمرة شبه الاحتضان فقد زأبته، وزأب الرجل وازدأب : إذا حمل ما يطيق وأسرع في المشي، وازدأب القربة ثم شمر، وزأبة القربة وزعبتها وهو حملها محتضنا، والزأب أن تزأب شيئا فتحمله بمرة واحدة، وزأب الرجل إذا شرب شربا شديدا وزأب يحمله يجره" . (ابن منظور، (د.ت)، ص 443-444)

بينما نجد هذه الكلمة في القاموس المحيط معرفة: " زأب القربة: حملها ثم أقبل بها سريعا وازدأبها وشرب شربا شديدا، والإبل ساقها الزآنب القوارير، وعام أزب مخصب" . (الفيروز آبادي، (د.ت)، ص77)

إذا فالمعنى اللغوي لكلمة " زاب " يدور في فلك: الماء، الحفرة، السرعة، فالزاب قد يكون المكان المرتفع الذي يسيل منه الماء بسرعة، أو أنه تلك المنطقة المحصورة بين الأودية والأنهار والتي تشكل روافده، وعادة ما تكون خصبة مثل أراضي العراق ما بين دجلة والفرات.

وعلى مر العصر الوسيط، نجد أن السكان المحليين لبلاد المغرب يطلقون اسم الزاب على الواحة، ويذهب إسماعيل العربي (1983) على أن مصطلح بلاد الزاب أطلق على المناطق المليئة ببساتين النخيل وتخترقها السواقي والأودية (العربي، 1983، ص142)، ثم يظهر مصطلح جديد في المنطقة سجله الحموي (1990) بقوله: " قال الأصم المنورقي: الزاب كورة صغيرة يقال لها ريغ وهي كلمة بربرية معناها السبخة فمن كان منها يقال له الريغي " (الحموي، 1990، 77/3)، والسبخة لغة هي الأرض ذات النزّ والملح ولهذا سميت بلاد ريغ جنوب زيبان بسكرة بهذا الاسم نسبة إلى شط ملغيغ.

2. جغرافية إقليم الزاب خلال العصر الوسيط

يجد الباحث صعوبة في رسم حدود جغرافية ثابتة لإقليم الزاب طيلة العصر الوسيط لما شهدته المنطقة من ثورات ومعارك في محاولة كل طرف جعل الإقليم في مجال نفوذه وسلطانه نظرا للموقع الاستراتيجي الوسط للإقليم، فهو يربط بين المغرب الأدنى بالأقصى ويعد ممرا تجاريا هاما من الأندلس إلى المشرق الإسلامي أو إلى إفريقيا جنوب الصحراء وبلاد السودان، هذا ما جعل عاصمة الإقليم تتغير عدة مرات من أذنة إبان الفتح الإسلامي إلى طبنة خلال عصر الولاة والدولة الأغلبية، فالمسيلة خلال حكم الفاطميين، ثم مدينة القلعة أيام حكم الحماديين، ثم يتقلص الإقليم ليشمل مدينة بسكرة وما جاورها من مدن خلال حكم الموحدين والإمارات المحلية، لذلك يجب تتبع كل النصوص الجغرافية والتاريخية كل في فترة الكاتب لجعل الحدود الجغرافية واضحة: فابن خرداذبة (ت 272 هـ/885 م) في كتابه المسالك والممالك، يعدد مناطق نفوذ بني الأغلب بقوله: " وفي يده قابس وجلولا وسبيطلة... ومدينة الزاب وتهوذة.. " (ابن خرداذبة، 1889، ص87)، فلم يحدد مدينة الزاب أو حاضرتها الكبرى في متن حديثه، لكنه يتدارك ذلك في فهرس كتابه بذكر: " طبنة مدينة الزاب " (ابن خرداذبة، 1889، ص289).

وتتضح صورة بلاد الزاب ومدنها عند اليعقوبي (ت 284 هـ/897 م): " ومدينة الزاب العظمى طبنة، وهي التي ينزلها الولاة وبها أخلاط من قريش والعرب والجند وعجم من أهل خراسان... ومدينة يقال لها تيجس من عمل باغاية... ومدينة عظيمة جليلة يقال لها ميلة عامرة محصنة.... ومدينة يقال لها سطيف...ومدينة يقال لها بلزمة.... ومدينة يقال لها نقاوس... وطبنة مدينة الزاب العظمى وهي في وسط الزاب وبها ينزل الولاة... ومدينة يقال لها مقرة لها حصون كثيرة... ومدينة أربة وهي آخر مدن الزاب مما يلي المغرب في آخر عمل بني الأغلب " (اليعقوبي،2003، ص 85-87).

يصف المقدسي (ت 388 هـ /998 م) الطرق الرابطة بين المدن وهو أقرب بذلك إلى ابن حوقل الذي عاش في زمانه، فيذكر عن بلاد الزاب: " والزاب مدينتها المسيلة ولها مقرة، طبنة، بسكرة، بادس، تهوذا، طولقا، جميلة، بنطيوس، أذنة، أشير " (المقدسي، 1991، ص221)، ففي عهد المقدسي تراجع دور مدينة طبنة وتحولت قصبة بلاد الزاب إلى المحمدية (المسيلة) بعد بنائها من طرف الفاطميين.

أما صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار (عاش خلال القرن السادس هجري) فيصف إقليم الزاب ويتحدث عن تحول عاصمة الإقليم إلى بسكرة على زمانه بقوله: " وهي على طرف الصحراء في سمت بلاد الجريد، وهي مثلها في حر هوائها وكثرة نخلها، وهي مدن كثيرة وأنظار واسعة وعمائر متصلة فيها المياه السائحة والأنهار والعيون الكثيرة "، ثم يذكر مدن بلاد الزاب :" مدينة بسكرة هي قاعدة بلاد الزاب ومن مدنها : المسيلة، نقاوس، طبنة، تهوذة، وبادس وهي آخر بلاد الزاب. (الاستبصار في عجائب الأمصار، 171)

وتتغير جغرافية الزاب زمن ابن خلدون (ت 808 هـ/ 1406 م) حيث يصف إقليم الزاب بقوله: " هذا البلد بسكرة هو قاعدة وطن الزاب لهذا العهد.... وهذا الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعددة متجاورة جمعا جمعا يعرف كل واحد منها بالزاب وأولها زاب الدوسن ثم زاب طولقة ثم زاب مليلة وزاب بسكرة وزاب تهودا وزاب بادس وبسكرة أم هذه القرى كلها.. ". (ابن خلدون،6،585/2000).

3. الصناعات والحرف في إقليم الزاب خلال العصر الوسيط

تختلف الصناعة من مجتمع إلى آخر باختلاف درجة التطور التي لحقها المجتمع، فصنائع المجتمع البدوي تختلف عنها في المجتمع الحضري، فترتكز الصناعة عند البدو حول توفير الطعام والملبس والخيام وبعض الأدوات التي تستعمل في توفير الأمن، وهذا ما يعني أن المجال الصناعي في المجتمع البدوي ضيق، يقول ابن خلدون عن ذلك: " العمران البدوي لا يحتاج من الصنائع إلا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات: من نجار أو حداد أو خياط أو حائك " (ابن خلدون، المقدمة، 2000. 91/2)، فإذا كبر المجتمع وتحضر دعت أمور الترف إلى استعمال صنائع أخرى.

أما المجتمع الحضري فيختلف عن البدوي، حيث يستبحر فيه العمران ويكثر السكان الذين يتطلعون إلى أكثر من ما هو ضروري أي الكماليات، فيذكر ابن خلدون عن هذا الجانب: "إذا بحر العمران وطلبت فيه الكماليات كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها فكملت بجميع متمماتها وتزايدات صنائع أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من جزار ودباغ وخراز [2] وصائغ وأمثال ذلك ".(ابن خلدون، المقدمة، 2000. 91/2).

[2]- الخرّاز، هو صانع الأحذية، والخرازة حرفته.

فإذا عظم العمران وزاد اتساعه ظهرت صناعات أخرى مثل:" الدهان والصفار[3] والحمامي[4] والطباخ والشماع [5]والهرّاس [6]ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع ". (ابن خلدون، المقدمة، 2000. 96/2). فابن خلدون يربط اذن بين اتساع العمران باتساع ميدان الصناعة، فيذكر أنه: " إذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها، كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ وكثر الصناع إلى أن تبلغ غايتها من ذلك... فإذا تراجع عمرانها قلت الصنائع لأجل ذلك ".(ابن خلدون، المقدمة، 2000. 96/2).

ومما لاشك فيه أن حواضر ومدن إقليم الزاب شهدت حركة صناعية متنوعة، وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى النمو الزراعي وتعدد المحاصيل وكثرة الثروة الحيوانية إضافة إلى وقوعها في مفترق التجارية الداخلية والخارجية مما أنعش حركة الصناعة بها، الا أن عدة عوائق ظهرت في ترويج الصنائع لعدة أسباب أهمها : التشابه الصناعي بين مختلف مدن الزاب حيث كانت صناعة المنطقة قائمة بشكل أساسي على الإنتاج الفلاحي والحيواني فهي تشمل معالجة الحبوب بالطحن والعجن، والصناعات النسيجية والصوفية والصناعات الجلدية، وهذا ما هو متوفر في سائر المنطقة مما يدخل الصناعة في حالة ركود لقلة الطلب. ولذلك تغلب الصناعة الحرفية على صناعة بلاد الزاب، لكن هذا الأمر لم يكن عائقا أمام تطور تلك الصناعة وزيادة الإنتاج والتي سمحت بتغطية الطلب المحلي وتمويل الأسواق الخارجية، ومن خلال ما تقدم يمكننا تقسيم صناعة إقليم الزاب إلى:

1.3 الصناعة الزراعية

تعتمد هذه الصناعة على الإنتاج النباتي والحيواني، وبفضل توفر إقليم الزاب على مختلف المنتجات الحيوانية والنباتية ظهرت العديد من الصناعات والحرف التي صاحبت توفر هاته المنتجات. تعد صناعة النسيج أحد أهم الصناعات والحرف في العصور الوسطى، فالنسيج تصنع منه الملابس أو الأثاث المنزلي أو لصناعة الخيام. وعن

3- الصفار، وهو الذي يشتغل بصناعة الصفر وهو نوع من النحاس.

4- الحمامي، الذي يتعهد الحمامات ويزاول صناعتها.

5- الشماع، الذي يبيع الشمع أو يشعله.

6- الهرّاس، يطحن الحبوب وغيرها.

صناعة النسيج لاستعماله بالمنازل يذكر الحموي (1990) عن مدينة تبسة: " بها بسط جليلة محكمة النسيج يقيم البساط منها مدة طويلة ". (الحموي، 1990، 363/3).

عرف عن الإقليم غناه بالمادة الأولية لصناعة النسيج، فمدينة طبنة حسب الإدريسي (1989) " بها صنائع وهي كثيرة القطن " (الإدريسي، 1989، 1/ 263)، وأهل مقرة " يزرعون الكتان وهو عندهم كثير "، ومدينة المسيلة " من أكثر غلاتها القطن ". (ابن حوقل، 1992، 85).

ويصف البكري (ت 457هـ) لباس البربر أنهم يرتدون برانس سود حصينة لا ينفذها الماء، وصنعوا أيضا الأردية ومنها القلانس المصبغة والقمصان والسراويل والمناديل وغيرها.(البكري، د.ت، 147).

كما عرف إقليم الزاب ظهور صناعة أو حرفة الصوف التي تعتمد بالدرجة الأولى على صوف الأنعام التي توفرت بكثرة في الإقليم، حيث كانت مدينة المسيلة " كثيرة المواشي من الدواب والأنعام والبقر" (ابن حوقل، 1992، 87)، ومدينة طبنة" وافرة الماشية من البقر والغنم وسائر الكراع والنعم "(ابن حوقل، 1992، 85)، وجبل أوراس " وافر الماشية من سائر النعم والكراع " (ابن حوقل، 1992، 85)، ومدينة بلزمة كذلك. إن هذه الثروة الحيوانية ساهمت في نشوء صناعة محلية حرفية سرعان ما انتقلت مع القوافل التجارية باتجاه المدن المختلفة مثلما ورد عن ابن الصغير عن وجود أكسية الصوف في تيهرت. (ابن الصغير المالكي، 1986، 377). أما الكتان فكان يستعمل نسيجه في صناعة الثياب وغيرها (ابن حيان، 1978، 40)، فوصف الجغرافيون غنى بعض مدن الزاب بمحاصيل الكتان مثل مدينة طبنة التي عرفت زراعة الكتان (ابن حوقل، 1992، 85)، ومدينة مقرة التي كانت زراعة الكتان بها كثيرة. (الإدريسي، 1989، 1/ 263).

وتوفر محصول القطن ببعض مدن الزاب مثل مدينتي طبنة والمسيلة، وساهم هذا المنتوج في ظهور الصناعة القطنية مثل الملابس القطنية، واستعمل أيضا في مجال التداوي، ويذكر الحموي عن خداع الصناع أنهم " كانوا يحفظونه في مناطق ندية فيزيد وزنه". (الحموي، 1990، 257/2).

وعرف الإنسان الزابي صباغة الأقمشة والملابس وغيرها، فكانت أغلب الأصباغ نباتية ومن بين الأصباغ الحناء لكنها اقتصرت على ملابس النساء دون الرجال (القاضي

النعمان ،1963، 305/1)، وتشير المصادر أن اليهود والنصارى من احتكر هذه المهنة. (القاضي عياض، 1968، 106).

2.3 الصناعة الغذائية

كانت الصناعة الغذائية أهم صناعة ومرتكز الحياة لسكان بلاد المغرب عموما وإقليم الزاب خصوصا لارتباطها بالحياة المعيشية للإنسان، ومن بين الصناعات الغذائية التي عرفها إنسان الإقليم.

-**عصر الزيتون:** توفرت شجرة الزيتون بإقليم الزاب منذ أيام الرومان الذين عمدوا على غرسه ليكون من أهم المصادر الاقتصادية للدولة (شنيتي، 2003، 109)، فوصف الرحالة والجغرافيون توفر الزيتون بإقليم الزاب ومدنه مثل مدينة بسكرة التي هي " كثيرة النخيل والزيتون " (الاستبصار، 173)، ومدينة أذنه التي لها قرية يكسم، يعد " زيتها أطيب الزيوت ". (البكري، 2003، 348/2). ومن اشتقاقات صناعة الزيتون نجد تصبير حبه ويستعمل طعاما، أما زيته فيدخل في عدة استعمالات سواء في تحضير الطعام أو يؤكل بالخبز أو يستعمل للإضاءة أو للعلاج، وكان عصر الزيتون يتم بطريقة بدائية وهي متبعة إلى الآن، فحبوبه تهرس بواسطة عجلة يديرها حيوان، ثم يمر الزيت المهروس إلى المعصرة ثم تأتي المرحلة الثانية حيث يتم غلي الزيتون وعجنه ثم يترك في أحواض فيطفو الزيت، ثم يحفظ في قلال أو زقاق من جلود الأغنام. (جودت، 1992، ص 46-47).

- **الأرحية:** اشتهر إقليم الزاب بتوفر أغلب محاصيل الحبوب، فكان الغذاء الأساسي للسكان يتكون من محاصيل القمح والشعير والحنطة التي تدخل في صناعة الخبز وبعض أنواع الطعام والحلويات وساعد على ذلك قابلية تخزينها، فيذكر الإدريسي على أن الحنطة تختزن في قلعة بني حماد "فتبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها التغيير ". (الإدريسي، 1989، 261/1). وكانت الأرحية توضع على أفواه الأنهار فإذا خرج الماء أدارها، ووكانت بعضها تدار بواسطة الحيوان (المقدسي، 1991، ص125). وإلى جانب هذه الأرحية كانت هناك أرحية أخرى متنقلة تدار باليد في المنازل. ومن الأرحية التي شاعت: صناعة أو طبخ الخبز، حيث كانت طريقة تحضيره تقوم على طريقتين: إحداها بالمنزل والأخرى في الفرن، وكانت الأفران بنوعيها متوفرة في كل

مكان، حيث كان بعض الرجال يبيعون الخبز المصنوع في المنزل في الأسواق، وكان تحضير الخبز في الفرن أو شراؤه من السوق هو الغالب على أهل المدن. (جودت، 1992، ص 109-110).

- **بعض الصناعات والحرف الغذائية:** من المرجح أن سكان إقليم الزاب قد قاموا بتجفيف الفواكه المنتجة بأراضيهم، فإذا توفر المحصول بكثرة يستعمل الفائض منه في التجفيف أو البيع، فعرفت مدن الإقليم محاصيل الفواكه التي من الممكن استعمالها في التجفيف مثل مدينتي نقاوس والمسيلة التي توجد بها فاكهة السفرجل التي كانت تستعمل في صنع معجون ورب يحمل من جيجل إلى بجاية، يسجلها صاحب الاستبصار: " تحمل منها الفواكه والعنب والرب إلى مدينة بجاية ".(الاستبصار، 128).

لقد تعددت الصناعات والحرف المرتبطة بالغذاء لدى إنسان الزاب مثله مثل غيره خاصة بعد التطور العمراني، فظهرت مهن متعددة مثل : الطباخ وصانع العطور وربما صنع الخمر ببلاد الزاب لتوفرها على منتوج الكروم. كما امتهن أهل الزاب أيضا صناعة الحصر والتي تُعمل من الحلفاء أو القصب أو حتى من سعف النخل وكل هذه المواد متوفرة بالإقليم، وعرفت المنطقة كذلك صناعة الغرابيل والتي هي ملازمة للحبوب المتوفرة بالمنطقة التي ربما كانت في جل المدن، وظهرت مهنة استخراج الملح، والذي كان متوفرا بمدينة بسكرة. (البكري، 2003، 231/2).

3. 3. الصناعة المعدنية

اعتمدت هذه الصناعة على مصدرين هامين وهما المعدن والخشب، فالخشب في إقليم الزاب متوفر لكثرة الغابات والجبال الواقعة في الحيز الجغرافي للإقليم. أما المعادن فكانت مفتقدة بالإقليم فيتم الحصول عليها بشرائها من القوافل التجارية الواردة لمدن الإقليم. ومن الصناعات المعدنية صناعة السلاح التي تقل المعلومات حول صناعته، فنجد أن مدينة الغدير بالقرب من المسيلة اشتهرت بصناعة الدروع حتى أصبحت تعرف بغدير الدروع. (جودت، 1992، ص 121).

ويرد نص عن القاضي النعمان مفاده أن الداعي الشيعي لما حاصر مدينة بلزمة " كان فيهم رجل من أهل مجانة يصنع لهم المجانيق والعرادات آلات الحروب " (القاضي النعمان، 1986

،178)، وحين تم إلقاء القبض على أبي يزيد صاحب الحمار" جُعل في في قفص من حديد " (ابن عذراي، 1983، 220/1)

كما صنع من الحديد بعض الأدوات المنزلية مثل الأبواب والسكاكين والمقص والإبرة والملاعق والكلاليب وأمواس الحلاقة والمواقد، إضافة إلى جذوات الخيول وبعض أدوات الفلاحة كالمحراث والفؤوس وغيرها، وصنعت أيضا السلاسل الحديدية والأقفاص. (جودت، 1992، ص 121). أما ضرب السكة (النقود) فاختصت بها مصالح الدولة (نريمان ، 2000، 210)، أما مادة الذهب والفضة فكانتا غير متوفرتين بالزاب، بينما توفرت مادة النحاس بجبل كتامة (البكري، 2003، 83/2)، ومنه تصنع بعض الأواني المنزلية مثل المهارس والطناجر النحاسية والكؤوس.

4. الحرف في إقليم الزاب خلال العصر الوسيط

توفر إقليم الزاب على ثروة حيوانية متنوعة من الماشية ومختلف الأنعام، صاحب هذه الوفرة عدة صناعات وحرف من بينها حرفة الجزّار والقصّاب، وقد حمل صاحب المهنة لقب الجزّار مثل: أبو جعفر أحمد ابن إبراهيم بن الجزّار (ابن الأثير، 1987، 400/07)، وظهرت أيضا مهنة متعلقة باللحم مثل الشوائين. (جودت، 1992، ص 115).

ومن بين الحرف أيضا مهنة الدباغة والتي عرفت بإقليم الزاب نظرا لتوفر المواشي ويستعمل في صناعتها قشور الرمان والقرظ والشب والسماغ. يذكر ابن حوقل أن مدينة قابس بها " جلود تدبغ بالقرظ " (ابن حوقل، 1992، 72)، وكانت هذه الصناعة تقام خارج المدينة لأن رائحتها كريهة، ويرتبط بهذه الصناعة صناعات جلدية أخرى مثل صنع الطبول والدفوف والقِرَبْ والأحذية.

وكان لطبيعة الزاب الجغرافية وتنوع النباتات والحشائش بنواحي الإقليم سببا في ظهور حرف ومهن طبية، فاستعمل الإنسان الزابي بعضا منها في التداوي والتطبيب مثل القطن ونبات الشيح وغيرهما من النباتات. يصور لنا الإدريسي صعوبة الحياة بقلعة بني حمّاد زمن الصيف لكثرة العقارب فيقول عن ذلك:" وبهذه المدينة عقارب كثيرة سود وتقتل في الحال وأهل القلعة يتحرزون منها ويتحصنون من ضررها ويشربون لها نبات الفوليون الحراني ويزعمون أنه ينفع شرب درهمين منه لعام كامل ".(الإدريسي، 1989، 1/ 255).

كان البناء أحد أهم المهن الأساسية التي عرفها ساكنة الإقليم، وهذا تماشيا مع حركة التعمير بالمنطقة سواء لبناء البيوت أو القصور أو الحصون أو الأسوار (ممدوح، 1997، 50)، حيث وجدت آثار بقلعة بني حماد تحتوي على الخزف المعماري من قرميد وآجر (بورويبة، 1977، 118)، وخير دليل على إتقان إنسان بلاد الزاب لمهنة البناء هو قيام زيري بن مناد عند بنائه لمدينة آشير باستقدام البنائين من طبنة والمسيلة وسوق حمزة (الهادي روجي إدريس، 1992،44). ومن الصنائع أيضا نجد حرفة صناعة الفخار الذي تم استعماله في المنازل مثل القلال والجرات والأطباق والكؤوس وغيرها. كما أنه من الممكن أن سكان الزاب قد عرفوا الصناعة الخشبية وهذا راجع لتوفر المنطقة على الأخشاب فصنعت الكراسي والأسرة والسهام والأقواس. (جودت عبد الكريم، 1992، ص 117). كما ظهرت حرفة الصيد بين أهل الإقليم سواء صيد الحيوانات البرية أو الطيور أو الأسماك، حيث كان سكان المسيلة يصطادون السمك من نهر سهر ومنه يحمل إلى قلعة بني حماد. (الإدريسي، 1989، 1/ 254).

خاتمة

عرف مجتمع إقليم الزاب نشوء حرف وصناعات متعددة انتعشت بنمو الإنتاج الزراعي ووفرة الثروة الحيوانية؛ فقامت الصناعة الحرفية بالأساس على هذا الإنتاج، وعليه شاعت الصناعة الزراعية، والصناعة التي تعتمد على ما تنتجه الثروة الحيوانية، والصناعة المعدنية التي تقوم على موارد الإقليم أو ما يتم جلبه من المناطق الأخرى. وعندما تحقق الاكتفاء الذاتي كان يتم تصدير الفائض عبر القوافل التجارية التي تعبر جل مدن الإقليم لتصل إلى بلاد السودان أو المشرق الإسلامي ومنها ما حمل عبر البحر عبر بجاية لتصل مدن الأندلس وأوربا.

وكان للواقع السياسي دور في تطور هذه الصناعة أو زوالها، حيث أن إقليم الزاب توفر على موارد أولية أسهت في نشوء بضع صناعات وحرف، بينما غابت المادة الأولية في بعض الصناعات الأخرى، فكانت تجلب تلك المادة مع قوافل التجار من البلدان المجاورة، لذلك أسهمت الحالة السياسية المستقرة في ازدهار الصناعات وظهور الأسواق وتبادل المنتجات بين مختلف المدن، فإذا ظهرت الصراعات والاقتتالات زالت هذه الصناعات وقطعت الطريق أمام القوافل التجارية.

المراجع

1. ابن الأثير عز الدين،1987. الكامل في التاريخ، ج 07، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت.
2. ابن حوقل أبو القاسم، 1992. صورة الأرض، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، لبنان.
3. ابن حيان حيان ،1978، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تح: محمود علي مكي، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.
4. ابن خلدون عبد الرحمن ،2000. المقدمة، ج02، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت.
5. ابن خلدون عبد الرحمن، 2000. ديوان العبر والمبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج06، ضبط المتن خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.
6. ابن منظور جمال الدين، (د ت). لسان العرب، مجلد 01، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
7. الإدريسي الشريف ،1989. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مجلد 01، دار عالم الكتب، لبنان.
8. البكري أبو عبيد الله، (د.ت). المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
9. البكري أبو عبيد الله، 2003. المسالك والممالك، ج.02، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت.
10. بورويبة رشيد ،1977. الدولة الحمادية –تاريخها وحضارتها -، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
11. بومعزة عبد القادر ،2016. بسكرة في عيون الرحالة الغربيين، ج01، دار علي بن زيد للطباعة، بسكرة.
12. الجنحاني الحبيب ،1978. المغرب الإسلامي – الحياة الاقتصادية والاجتماعية (3-4هـ/9-10م)، الدار التونسية للنشر والتوزيع، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
13. جودت عبد الكريم يوسف، 1992. الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع هجري (09-10 م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
14. الحموي ياقوت شهاب الدين، 1990.معجم البلدان، ج 03، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت.
15. شنيتي محمد البشير ،1999. الجزائر في ظل الإحتلال الروماني، ج 01، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

16. شنيتي محمد البشير ،2003. أضواء على تاريخ الجزائر، دار الحكمة، الجزائر.
17. صيد عبد الحليم، 2000. أبحاث في تاريخ زيبان بسكرة، مطبعة سوف، الوادي.
18. العربي إسماعيل، 1983. الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
19. الفيروزآبادي مجيد الدين، (د.ت)، القاموس المحيط، ج01، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان.
20. القاضي النعمان، 1963. دعائم الإسلام، ج 01، تحقيق آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف، القاهرة.
21. القاضي النعمان ،1986. افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع وديوان المطبوعات الجامعية الجزائر.
22. القاضي عياض، 1968. تراجم أغلبية، نشر محمد طالبي، نشر الجامعة التونسية، تونس.
23. لقبال موسى،1978. طبنة مدينة الزاب والأوراس في العصور الوسطى، مجلة الأصالة، العدد 60-61، مطبعة البعث، قسنطينة.
24. المالكي ابن الصغير ،1986. أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
25. مجهول، (د.ت). الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
26. مديازة صورية، 2010. بلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى غاية انتقال الفاطميين إلى مصر (21-362 هـ / 642 – 972 م)، رسالة ماجستير، جامعة باتنة.
27. المراكشي ابن عذاري ،1983. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 01، تحقيق ومراجعة ليفي بروفنسال وح.س.كولان، دار الثقافة، بيروت.
28. مصمودي فوزي،2013. الزاب – المصطلح والدلالات -، دار علي بن زيد للطباعة والنشر، بسكرة.
29. المقدسي شمس الدين، 1991. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة.
30. ممدوح حسين، 1997. إفريقية في عصر الأمير إبراهيم الثاني الأغلبي – قراءة جديدة تكشف افتراءات الفاطميين -، دار عمار، الأردن.
31. الهادي روجي إدريس، 1992. الدولة الصنهاجية، ج01، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، لبنان.
32. اليعقوبي أحمد، 2003. البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، لبنان.